محاضرة الرابعة ج2:

الفضـــاء المكـانـي في الرواية
(أنماط الفضـــاء المكانـــي في الرواية)

تمهيد:

قـدم الفكـر النقـدي الحـديث تصـنيفات عـدة للمكـان علـى وفـق مـا أفرزتهـا التنظيـرات المعاصرة التي منحت المكان اهتماماً كبيراً أحدث نقلـة نوعيـة فـي تعامل النقـاد والبـاحثين مـع هذا العنصر الذي ظل أسير النظرة التقليديـة القاصـرة علـى مـدى الفتـرة الممتدة مـن (بلـزاك - فلوبير)، إلا أن الاتجاه النقدي الحديث أدخل الاهتمام بالمكان في ضـمن أبـرز التحـولات التـي حدثت في الرواية الجديدة ، فظهرت تصنيفات عدة للمكان منهـا: الأليـف والمعـادي ، والمغلـق والمفتـوح ، والـواقعي والخيـالي ، والعلـوي و السـفلي... ، وكـل هـذه الثنائيـات الجدليـة تتحـدد على وفق أحداث الروايات وما يتركه المكان من انطباع في نفس الشخصية.

1- أنماط المكان وأنواعه في الرواية:

لقد اقتـرح **حسن بحـراوى** تقسيم المكـان الروائـي إلـى نـوعين علـى أسـاس تقاطـب ثنائيـة " الانغلاق و الانفتاح "إذ ميز بين أمكنة الانتقال و أمكنه الإقامة التي هي عبارة عن تقاطبـات أصـلية يمكـن لهـا أن تتفـرع إلـى تقاطبـات فرعيـة، فعـرف أمـاكن الانتقـال علـى أنهـا مسـرحا لحركة الشخصيات وتنقلاتها مثل الشـوارع والاحيـاء و المحطـات، وأمـاكن لقـاء النـاس خـارج بيـوتهم مثـل المحـلات و المقاهي....وكمـا يمكـن أن تنطـوي هـذه المـاكن تحـت تسـمية الأمـاكن المفتوحة ؛ وهي عادة ما تكون ملكية عامة يشارك فيها جميع الناس.

في المقابل هناك أمـاكن الإقامـة اطلـق عليهـا بعض النقـاد الأمـاكن المنغلقـة كالبيـت و السجن والمستشفى، وأعطى **غاستون باشـلار** بعدا إنسـانيا للمكـان ، حيـث ميـز بـين : الأمكنـة الأليفة و الأمكنة المعادية .

ويمكن أن تكون هناك أمكنـة مختلفـة تمامـا عـن الأمكنـة الواقعيـة وهـي الأمكنـة العجائبيـة السـحرية، التـي تظهـر وتختفـي وتتحـول ، تكـون تحـت الأرض أو فـي السـماء....مثـل روايـات الخيـال العلمـي أو الروايـات العجائبيـة. وسـنحاول تحديـد بعـض أنمـاط المكـان فـي الروايـة عموما.

1-1 الفضاء المغلق و الفضاء المفتوح:

أ ـ الفضاء المكاني المغلق: هو "مكان محدود المساحة ويتصف بالضيق وهو فضاء طارئ ومفارق للمعتاد"[1] ، حيث يبقى الانسان في هذا المكان فترات طويلة أو قصيرة من الزمن

[1] فهد حسين: **المكان في الرواية البحرينية، دراسة نقدية**، فراديس للنشر والتوزيع، مملكة البحرين، ط1، 2003، ص 209.

سواء بإرادته، أو بإرادة الآخرين، لذا فهو « المكان المؤطر بالحدود الهندسية والجغرافية، فقد تكشف الأمكنة المغلقة عن الألفة والأمان، أو قد تكون مصدرًا للخوف والذعر.» [2]

إن الحديث عن المكان المغلق هو حديث عن المكان الذي حددت مساحته ومكوناته، كغرف البيوت والقصور، فهو المأوى الاختياري والضرورة الاجتماعية، كساحات السجون، فهو المكان الإجباري المؤقت فقد تكشف الأماكن المغلقة عن الألفة والأمان، أو قد تكون مصدر لخوف. أو هي الأماكن الشعبية التي يقصدها الناس لتمضية الوقت والترويح عن النفس (كالمقاهي)، أو تلك الأماكن التي تتردد عليها الطبقة المترفة الغنية والرفاهية لتشبع نزواتها وشهواتها كالملاهي.

وعليه فالمكان المغلق «هو مكان العيش والسكن ...وهو المكان المؤطر بالحدود الهندسية والجغرافية، ويبرز الصراع الدائم القائم بين المكان كعنصر فني ويبقى الإنسان، الساكن فيه، ولا يتوقف هذا الصراع إلا إذا بدأ التآلف يتضح ويتحقق بين الإنسان والمكان الذي يقيم فيه».[3]

والمكان المغلق يندرج تحته نوعان:

-المكان المغلق الاختياري

" وهو المكان الذي يحمل صفة الألفة وانبعاث الدفء العاطفي، ويسعى لإبراز الحماية والطمأنينة في فضائية.

-المكان المغلق الإجباري

وهو مكان محدود المساحة ويتصف بالضيق وتكون الإقامة فيه بالنسبة للإنسان جبرية ومفروضة".[4]

ومن هنا نستنتج أن الأماكن المغلقة هي التي يحتمي بها الإنسان وفي كثير من الأحيان أخرى تكون له المضيق التي تكتم على نفسه.

تطبيق:

- **المستشفى، السجن أماكن مغلقة و الإقامة الإجبارية**: يتحول الفضاء للمريض أو السجين من الفضاء المفتوح إلى المغلق والإقامة فيه إقامة جبرية، بوصفها عالمًا مفارقًا للحرية، " فالأمكنة الإجبارية معنية بالإقامة التي تبعد المرء عن العالم الخارجي وتعزله عنه وتقيد من حريته." [5]

يمكن اعتبار المستشفى من مقومات الأدب الواقعي الممعن في قضايا المجتمع والمعبر عن مشاغل الناس وآلامهم، فهو مكان اجتماعي وملتقى لقطاع واسع من الناس والفئات المختلفة المراكز الاجتماعية، ولعل أبرز رموز هذا المكان باعتباره مكانًا:

للإقامة الجبرية للمريض
للإقامة المؤقتة المتعلقة بقانون المكان بالنسبة للزائر
للإقامة الاختيارية المرتبطة باحترام العمل بالنسبة للطبيب أو الممرض.

---

[2] المرجع نفسه، ص 163.
[3] -ينظر: مهدي عبيدي : **جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا**، ص43-44.
[4] - مهدي عبيد، **جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا**، ص47-74.
[5] فهد حسين: **المكان في الرواية البحرينية**، ص 209 .

ومن أبرز رموز السجن ـ باعتباره مكانًا للإقامة الجبرية ـ شديدة الانغلاق، هي تلك الأبواب الحديدية التي تحجب النزلاء عن العالم الخارجي وتكون الحد الفاصل بين الخارج والداخل، وبين الزنزانة كعزلة مطلقة وساحة السجن كحرية نسبية، لذلك كان لصوت الأبواب الحديدية على الشخصيات مدلولا خاصا.

يحمل السجن أيضا في كثير من الروايات دلالات سلبية، فهو مكان ضيق ومعزول عن الآخرين، وسخ ذو رائحة كريهة تبدو الحياة فيه رتيبة ومملة، وهذه الصفات تجعل منه مكانًا معاديًا ومكروهًا بالنسبة للشخصيات.

ارتبط مدلول السجن في الرواية العربية بمعاني الفساد السياسي والاجتماعي المنتشرة في المجتمع، وكيف لهذا المكان أن يضمّ شخصيات مظلومة، بسيطة ومثقفة.. كانت ضحية للرؤوس الكبيرة كالإقطاعيين و أرباب العمل.. التي بقيت خارج هذا الفضاء لتمارس سلطتها وأيديولوجيتها القهرية على الطبقات الشعبية البسيطة، فهو ليس سجنًا للجسد فقط وإنما سجنًا للنفس البشرية وحرماناً لها من حقوقها الشرعية « وهنا يصبح الفضاء السجني بؤرة للعجز قاهرة تتربص بالشخصيات النزيلة لتضاعف من معاناتها.» [6]

فالأمكنة المنغلقة متنوعة وعديدة منها ذات الإقامة الاختيارية كالبيت والمنزل والمقهى وأماكن أخرى للتنقل والحركة كالشوارع والأحياء والمدن، ثم الأماكن المتحركة كالسفينة والسيارة.

ب ـ المكان المفتوح

وهي النوع الثاني من الأمكنة، "فالمكان المفتوح عكس المكان المغلق، والأمكنة المفتوحة عادة تحاول البحث في التحولات الحاصلة في المجتمع، وفي العلاقات الانسانية الاجتماعية ومدى تفاعلها مع المكان".[7]

فهذه الأمكنة تتناول بالبحث عن العلاقات الإنسانية وتحولاتها التي تحدث في المكان، كما أن «الحديث عن الأمكنة المفتوحة، هو حديث عن أماكن ذات مساحات هائلة توحي بالمجهول، كالبحر، والنهر، أو توحي بالسلبية كالمدينة، أو هو حديث من أماكن ذات مساحات متوسطة كالحي، حيث توحي بالألفة والمحبة، أو هو حديث عن أماكن ذات مساحات صغيرة كالسفينة والباخرة كمكان صغير ».[8]

عادة تكون ذات مساحات كبيرة غير محدودة، أو أماكن متوسطة المساحة، أو صغيرة وهي تقابل الأمكنة المغلقة؛ أيّ يوحي المكان المفتوح بالاتساع والتحرر ويخلق الأمر مشاعر الضيق والخوف لاسيما إذا كان المكان المفتوح في المكان الشتات والمنافي والمخيمات هي عادة تحاول البحث عن التحرر والانطلاق في مساحات الرحبة والتحولات الحاصلة في المجتمع فيها ينعم الإنسان بنوع من الحرية.

وبناءً على ما سبق يمكن القول أن "الحديث عن الأمكنة المفتوحة هو حديث عن أماكن ذات مساحات هائلة توحي بالمجهول، كالبحر والنهر أو توحي بالسلبية كالمدينة، أو حديث عن أماكن ذات مساحات متوسطة كالحيّ حيث توحي بالألفة والمحبة، أو هو الحديث عن أماكن ذات مساحات صغيرة كالسفينة والباخرة.» [9]

---

[6] حسن بحراوي: **بنية الشكل الروائي** ، ص 62.

[7]- المرجع نفسه: ص95.

[8] -المرجع نفسه: ص95.

[9] مهدي عبيدي: **جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة (حكاية بحار – الدقل – المرفأ البعيد)**، ص 95

2-1- أماكن الانتقال والإقامة المؤقتة:

أ- أماكن الانتقال العمومية:

هي مسرح لحركة الشخصيات وانتقالها، وتمثل الفضاءات التي تجد فيها الشخصيات نفسها كلما غادرت أماكن إقامتها الثابتة، وتتمثل في الشوارع والأحياء الراقية والشعبية، وهي أمكنة عامة تمنح الإنسان حرية الفعل وإمكانية التنقل وسعة الاطلاع والتبدل، "لذلك فهي فضاءات مكانية منفتحة على العالم الخارجي تعيش دوما حركة مستمرة، تؤدي وظيفة مهمة، تعتبر سبيل الناس إلى قضاء حوائجهم وجعلوها مكانا ينبض بالحياة لذلك اتخذت أبعاد سياسية واجتماعية وعليه اتخذت مفاهيم مختلفة في النصوص الروائية."[10]

فضاء الأحياء الشعبية يتميز بالطابع الطوبوغرافي المتحرر من جميع القيود الهندسية والحضارية، فهو مكان معزول عن العالم وهو يحصل على هوية الخامة كفضاء انتقالي.

ب-أماكن الانتقال الخصوصية

يقوم المقهى كمكان انتقال خصوصي بتأطير لحظات الفعالة وممارسات المشبوهة التي تنغمس فيها الشخصيات الروائية كلما وجدت نفسها على هامش الحياة الاجتماعية، "فهناك دائما سبب خفي أو ظاهر يقضى بوجود الشخصية ضمن مقهى ما... ولا يتعلق الأمر هنا بأمر شخصي أو اجتماعي يدعو إلى هذا الفضاء الانتقالي فقد يحدث ذلك بمحض اختيار الإنسان الذي تحركه، في العادة رغبة ماسة ملحة...»[11]

إن فضاء المقهى فضاء انتقالي ذو مظهر خاص، و هو "المكان الوحيد الذي يتحول فيه الفضاء الروائي الى خطاب اجتماعي وأخلاقي عن طريق ترجمة الصفات الطوبوغرافية إلى نظام من القيم تقرره الممارسة الاجتماعية، فالمقهى يعتبر نسقا مرجعيا ذا دلالة وخطابا رمزيا وإيديولوجيا»[12]؛ بمعنى أن المقهى كفضاء انتقال هو كبوصلة للتوترات اليومية التي تعيشها الشخصيات ومكان معاناتها الذاتية، بل إنه المكان الوحيد الذي يتحول فيه فضاء الروائي الى خطاب اجتماعي واخلاقي.

3-1- أمكنة العبور ووسائل التنقل:

إن الروايات العربية مليئة بأماكن التنقل التي تحتضن الشوارع والممرات والأزقة، والتي ترسم جسد الحياة وروح الأفراد فيها، وما تحويه من وسائل التنقل والمواصلات كأماكن متحركة وأمكنة السير متعددة، فمنها الطرق: البحرية والبرية والجوية، وهي "أماكن مسارات طويلة جدًّا، وتصل بين بلدين أو أكثر، وقد تكون ساحلية تساير الساحل أو تكون داخلية، وعليه مصب هذه الطرق هو المدن والقرى، وبالتالي يتم التنقل عليها بالسيارات والعربات».[13]

فأماكن العبور هي أماكن عمومية لا يمكن الاستقرار أو العيش فيها، فهي تمثل عصب الحياة في القرية أو المدينة أو الحي، والتي يسعى الإنسان إلى تطويريها وتحسينها من أجل

---

[10] -ينظر:حسن بحراوي: **بنية الشكل الروائي**، ص79.

[11] -حسن بحراوي: **المرجع نفسه**، ص91.

[12] -حسن بحراوي : **بنية الشكل الروائي** ,ص95.

[13] عبيدي مهدي: **جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة (حكاية بحار – الدقل – المرفأ البعيد)**، ص154.

حياة رغدة، "فأماكن العبور ليست أماكن للعيش؛ بل مجرد نقاط انتقال سريع أو توقف مؤقت، حيث يختار كل مؤلف المكان المعبر المناسب للسفر».[14]

وعلاقة الأمكنة ببعضها بعض علاقة جدلية ذات ارتباط وثيق ومتين، خاصّة بين أمكنة العبور والأمكنة المتحركة فيها، وسنقدم جدولا نبرز فيه أهم الفضاءات الانتقالية في الرواية:

أماكن العبور	الأماكن المتحركة (وسائل التنقل)
البحر-المحيط-النهر	السفينة-القارب-الغواصة
الصحراء	الجمل- السيارة
الجو	الطائرة
الشوارع والطرق والأحياء والأروقة	السيارة – العربة –

إذن، أماكن العبور هي أماكن ذات إقامة مؤقتة ويمكن إضافة أمكنة أخرى ذات بعد اجتماعي، وهي أمكنة الإقامة فيها متكررة لكن مؤقتة تتعلق بمستوى الشخصية وحالتها ويمكن أن يمثل المكان عتبة تحول وانتقال في حياة الشخصيات كـ: المدرسة – الجامعة – المسجد- المقهى..

* ففي رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) أشكال عدة لفضاء العتبة فـ(المدرسة) تشكل واحداً منها ؛ حيث كانت المدرسة نقطة انطلاق (مصطفى) إلى عالمه العجيب" قلت له أريد أن أدخل المدرسة نظر إليَّ الرجل بعطف ثم قيدوا اسمي في سجل وسألوني كم عمري فقلت لهم لا أدري، وفجأة دق الجرس، فررت منهم ودخلت إحدى الحجرات"،ص(45)، والمدرسة أيضاً كانت المحطة الأولى التي أوصلت الراوي إلى إنجلترا لنيل شهادة الدكتوراه.

فالمدرسة مكان انتقالي تقضي فيه الشخصية وقتاً معيناً ثم تغادره؛ بل هي محطة عبور إلى مستويات أخرى.

وكذلك المقهى محطة أخرى تقضي فيها الشخصية وقتاً معيناً ثم تعود إلى عالمها الخاص" كنا حين تكلُّ أقدامنا من الطواف نلوذ بمقهى بجوار جامع الأزهر، ونشرب عصير التمر هندي، ويقرأ مستر روبنسن شعر المعري"،ص(47)، فالمقهى مكان كان يلجأ إليه للاستراحة وتناول بعض المشروبات.

يمكن أن تتضمن الرواية أماكن أخرى غير واقعية كالأمكنة العجائبية، التي تكون لها خصائص غريبة أو تكون مختفية أو متحركة أو جزر سحرية مهجورة تحت الأرض أو في

---

[14] عمرو محمد عبد الواحد: **شعرية السرد، تحليل الخطاب السردي في مقامات الحريري**، دار الهدى للنشر والتوزيع،دب ط1، 2003، ص99.

الكهوف، أو أماكن في عالم آخر كالفضاء في رواية الخيال العلمي؛ وهذا كله يتعلق بتصور الكاتب وأسلوبه ونوعية الروايات التي يبدع فيها.

وبناء على ما سبق يمكن القول، إن أنواع الأمكنة تختلف من رواية إلى أخرى وهذا يتحدد بعلاقة الشخصية بها وتفاعلها في المحيط فتنشأ علاقات كثيرة منها علاقات الألفة و الحماية أو علاقة العداء و النفور.